أقنعة العولمة

لقد تغير العالم في السنوات الأخيرة تغيراً يكاد يعيد تشكيل الخريطة الجغرافية والتاريخية والثقافية والروحية، إن لم يكن قد أعاد تشكيلها بالفعل، وهذا ما جعلنا نحس أحيانا أننا لأول مرة في التاريخ نعيش عالما جديدا بمثل هذه الجدة التي لا تعطي الإنسان فرصة للتفكير واتخاذ الموقف الملائم، بل يغرقه بفيض من الأفكار تدفعه مضطرا للانسياق وراء ما يحدث، وكأنه فقد قدرته على التحكم في توازنه .

أ. د. عبدالله صالح العشي*

وقد ساعد على هذا التحول الرهيب أمران أساسيان في اعتقادي: الأول هو ثورة المعلومات التي تعد ثورة حقيقية فقد أصبح ما كان في حكم الخرافي واقعاً مدهشاً، والأمر الثاني هو أن هذه الثورة العلمية أصبحت تهيمن عليها وتوجهها مؤسسات سياسية وعسكرية واقتصادية، هي نفسها التي توجه الحضارة المعاصرة لتهيمن على الكوكب الأرضي كله.

ليس ثمة من خطأ في الثورة العلمية المشار إليها، ولا أظن أن فينا من سيقف موقفا سلبياً أمام الفتوحات العلمية، ولكن الخطر يأتي من المؤسسات المحتكرة للعلم والموجهة له، لقد ثبت واقعيا أن هذه المؤسسات هي مؤسسات مؤدلجة، بمعنى أنها لا تتمتع بحياد العلم وموضوعيته، بل هي مؤسسات تحمل أفكارا رهيبة، مشروعات فكرية وسياسية أقل ما يمكن أن توصف به أنها مشروعات استعلائية متكبرة، تعتقد أن العالم على ضلال إلا من اتبعها ،وأنه لا يقوى على فعل شيء ما يعتمد عليها، و ترى أن هذا العالم لم يعد يتسع للجميع، فهو فقط لمحتكري الثورة العلمية، وعلى الآخرين الالتزام والتبعية والتقليد.

في مثل هذا المناخ ظهرت العولمة، ليس بوصفها مقولة علمية مجردة حيادية، بل بوصفها مقولة إيديولوجية استغلت نتائج العلم المعاصر من أجل الهيمنة على العالم وتوحيده خارج حدود الثقافات والهويات الخاصة.

فحين يسعى الباحث إلى تقديم تعريف علمي للعولمة سوف لن يعثر على تعريف يطمئن إليه، ويتخذه مبدأ بحثه، على الرغم من الاستعمال الواسع لهذا المصطلح إلى درجة أصبح فيها مهيمنا على الكتابات السياسية والاقتصادية والإعلامية، فقد أصبح المصطلح نفسه مهيمنا، كما تسعى العولمة إلى الهيمنة، فالمؤسسات الغربية لم تستقر على تعريف موحد، أو أنها لا تريد ذلك، مع أنها تقدم تحديدات لأهداف النظام العالمي الجديد الذي تعد العولمة وسيلة تطبيقه.

وقد حاول بعض المعرفين اختصار هوية العولمة فحددها في كونها تقوم في أساسها على: « على تصيير المحلي عالميا، فهي وصف لعمل مستمر تدل عليه كلمة Globalisation، لكنها في الوقت نفسه وصف لبعض نتائج هذا التعولم. والنتيجة النهائية للعولمة أن تكون للعالم كله لغة أو لغات مشتركة وأن تكون التجارة فيه مفتوحة ومتيسرة بين كل بلدان العالم، وأن يسود فيه نظام اقتصادي واحد ونظام سياسي واحد وأن تسود فيه عقيدة واحدة، وأن تكون للناس فيه قيم مشتركة في مسائل كحقوق الإنسان والعلاقة بين الجنسين، وأن يكون هناك أدب عالمي يتذوقه الناس كلهم، وأن يسود فيه تبعا لذلك نظام تعليمي واحد، وأن تكون كل هذه الأمور التي تعولمت مناسبة للناس من حيث كونهم بشرا، ومساعدة لهم على تحقيق طموحاتهم المادية. هذا هو الهدف النهائي المثالي.

لكن العولمة قد تكون ناقصة، وقد تكون تامة من غير أن تكون مناسبة للبشر بل مفروضة عليهم لظروف طارئة».

ولو كانت مثل هذه الأفكار والطموحات والأحلام من تأملات الفلاسفة والمفكرين والعلماء، ومطروحة بوصفها علم الإنسانية التي تسعى إلى الرقي بنفسها إلى مستوى آخر أفضل من الوجود والعيش والحضارة، من غير أن تكون ملزمة لأحد بل متروكة للمجتمعات تسعى إلى تحقيقها كلما كانت الحالة الحضارية مناسبة من غير إكراه أو عنف ولا تضحيات بالثقافة واللغة والدين والتاريخ، لكان الأمر مقبولا كما قبلت من قبل مشروعات المدن الفاضلة.

وقد ذهب بعضهم إلى أن العولمة ظاهرة تاريخية، عرفتها البشرية في تطورها الحضاري، ففي كل مرحلة كانت حضارة ما تهيمن على بقية الحضارات، وفي زمن ما كانت الحضارة الإسلامية حضارة عالمية. هذا الطرح من الناحية الوصفية صحيح لكنه من حيث الأهداف الكبرى أمر متحفظ عليه، فثمة فرق كبير بين عالمية الحضارة الإسلامية والعولمة المعاصرة.

وقد يبدو لبعض المتابعين أن الإسلام يتضمن مشروعا شبيها بمشروع العولمة، إن لم يكن هو ذاته، والحقيقة أن هناك فرقا جوهريا بينهما، فالعولمة تهدف إلى تحويل العالم إلى مجتمع واحد في الثقافة والفكر والتعليم والذوق وغير ذلك، أي أنها تسعى إلى

إجبار العالم على نوع واحد من الحياة، وهذا أمر مناقض للفطرة البشرية التي خلق عليها الناس «شعوبا وقبائل».

أما الإسلام فيحترم الهويات والخصوصيات وينبذ الإكراه، ويقوم المشروع الإسلامي على الاعتراف الأولي بالتنوع والاختلاف الثقافي واللغوي، وحتى الدين لايفرض بالقوة إنما بالإقناع، فثمة فرق واضح بين العولمة وعالمية الإسلام. فلم يكن الإسلام غازيا مثلما يطبق مشروع العولمة الآن.

لقد عاشت في ظل الحضارة الإسلامية شعوب وقوميات وأديان وأسهموا في صناعة منجزات الحضارة الإسلامية، ولم يقصوا أو يهمشوا. والإسلام أقام مشروعه الحضاري على أساس من المبادئ التي تحفظ للإنسان حريته وكرامته وحقوقه، بل حافظ الإسلام على ثقافات الشعوب ولغاتها وأخلاقها.

لكن مشروع العولمة يقوم على منطق يتدخل حتى في الأمور الأسرية التي يبدو أنها بعيدة عن تأثيرات العولمة.

هذا وللعولمة أشكال وطرق وأوجه وأقنعة متعددة تظهر في كل مرة بقناع مستفيدة من ثقافة التبشير النصراني والإستراتيجية الاستعمارية معا، أي من الخطاب المسالم والخطاب العنيف معا .

وقد تلقت الثقافة العربية خطاب العولمة، كما تلقاه الآخرون، وانتشر في سنوات قليلة كما لم يتنشر أي مصطلح آخر قبله، وكانت ردود الفعل في الخطاب العربي متفاوتة، وإن كانت في أغلبها تجمع على عدم براءتها.

ويكاد يجمع المفكرون العرب المعاصرون المتزنون بمذاهبهم المختلفة وتياراتهم المتعددة على صياغة خطاب سلبي ضد العولمة، حتى ولو ذهب بعضهم إلى ضرورة التفاعل معها تفاعلا إيجابيا، بمعنى الاستفادة من منجزاتها العلمية الهائلة، غير أن خطابهم يتضمن تحديد العولمة على أنها نوع من الاستعمار الجديد الذي يسعى إلى الهيمنة الشاملة على العالم كله وإخضاع البشرية كلها لنظام واحد في الفكر والسياسة والاقتصاد والفن وغيرها.

وقد كان بإمكان مجتمعاتنا العربية أن تكون في موقع أفضل مما هي عليه الآن، بحكم ما تتمتع به من موقع إستراتيجي، وثروات مختلفة، ومواد أولية، وخبرات بشرية، وكفاءات علمية تؤهلها للانتقال إلى مجتمعات متقدمة.

وإننا سنكون في خطر إن تصورنا أن العولمة مرحلة عابرة، وسنكون مخطئين

إن كنا نعتقد أننا في منأى عنها، ولذلك لابد من التعامل الذكي الذي يكلفنا أقل الخسائر، مع العلم أن كل مواجهة معها ستكلفنا شيئا من الخسائر.

ولكن أن نخسر قليلاً ونربح ولو قليلا أيضا أفضل من أن نخسر كثيراً، وعليه فأنا أعتقد أنه لا بد من الناحية النظرية عدم جعل العولمة قدرا محتوما ينبغي الاستسلام له، بل التعامل معها على أنها مرحلة من مراحل المواجهة الحضارية التي واجهت الأمة العربية وما تزال تواجهها، وأن نقوي في ذواتنا القدرة على المواجهة وأن نثبت إيماننا بهويتنا، بمعنى أنه لا ينبغي أن نواجه العولمة من منطلق الضعيف المهزوم بل من منطلق القوي بفكره ودينه وثقافته.

هذا الإطار النظري هو الذي سيمكن الجانب العملي من الصمود والمواجهة والتحدي.

أما على المستوى العملي فإن الأمر يتطلب: ضرورة التحديث في المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية، لأن هذا التحديث سيقلل من ضغوط المشروع العولمي علينا من جهة، ويجنبنا العودة إلى الغرب في كل مطالبنا واحتياجاتنا، ويجنب أفراد مجتمعاتنا من تأثيرات العولمة السلبية، ثم إن هذا التحديث ضرورة حضارية لا نستطيع البقاء على الهامش في عالم جامح لا يعترف إلا بالقوي علمياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً.

إن محاولة التعرف على العالم من خارجه، أي من داخل ثقافتنا لم يعد بالأمر الممكن، لذا وجب التعرف إليه من داخله، وهذا ما فعله الغرب نفسه بالنسبة للآخر فقد اتصل به وتفاعل معه من داخله. الغرب يعرفنا الآن بشكل جيد، ومع ذلك فما يزال يتابع المتغيرات التي تحدث من خلال غرف عمليات يتابع من خلالها أي حركة، يرصدنا من الأرض ومن السماء، ومن كل جانب. فمن أجل الدفاع عن أنفسنا ينبغي التعرف أولا عما يحيطنا.

ولا بد من التفاعل الحضاري مع المتغيرات الدولية من منظور حوار الحضارات، وليس من منظور التبعية الساذجة. إن التخندق وراء حدودنا الجغرافية والثقافية لن يكون أبداً حصناً لنا ضد التأثيرات التي تهجم علينا من خارج حدودنا.

وعليه فالتفاعل الموجه والمبرمج هو سبيلنا، حتى ولو كنا في منأى عن تحديات العولمة. وهذا هو منهج الحضارة الإسلامية،

أيام كانت في عز ازدهارها، في التفاعل الحضاري. إن هذا التفاعل الحضاري هو ما يضمن لثقافتنا بعض الحياة والحيوية ويجعلها قادرة على إنتاج الأفكار والمشروعات الحضارية.

ضرورة الحفاظ على هويتنا والدفاع عنها وهو المسعى الأصلي الذي نهدف إليه، والحفاظ يتم من خلال وسائل عديدة، إما بتطوير وسائل التعليم ومناهجه، أو تطوير وسائل الدعوة وطرقها، قبل أن يفرض علينا التطوير من الخارج، وقد بدأ بالفعل يحدث ذلك.

وينبغي ألا تكون الحداثة التي نسعى إليها على حساب أصالتنا، فالحداثة لا تتنافى مطلقا مع أي مكون من مكونات هويتنا. بل إن العمل على إيجاد السبل العلمية الكفيلة بالحفاظ على أصالتنا هو في ذاته مظهر من مظاهر الحداثة، فلتكن الحداثة هي وعينا بذاتنا وبالآخر معاً، وليكن الحافز المحرك لنا هو المستقبل.

* جامعة باتنة - الجزائر